المثل السابع والثلاثون

أصحاب القرية

المثل السابع والثلاثون:
أصحاب القرية

يقول الله تبارك وتعالى:

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾} [يس: ١٣ - ٣٢].

قال ابن كثير:

يقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك {مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ}. قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس

وكعب الأحبار: إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له: أنطيقس كان يعبد الأصنام، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم.

وقوله تعالى:{إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا} أي بادروهما بالتكذيب،{فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث قال ابن جريج: كان اسم الرسولين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولص والقرية أنطاكية، وقال ابن كثير: وزعم قتادة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية،{فَقَالُوٓاْ} أي لأهل تلك القرية{إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ} أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له،{قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا} أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر! فلم لا أوحي إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم:{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [التغابن: ٦] ! أي استعجبوا من ذلك وأنكروه، كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤] ! ولهذا قال هؤلاء:{مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كذبنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار كقوله تعالى:{قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا} [العنكبوت: ٥٢]، {وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ} يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم، كانت السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون مغبة كفركم، فعند ذلك قال لهم أهل القرية:{إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ}

أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا، وقال قتادة: يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم، وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها،{لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ}، قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم{وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي عقوبة شديدة، فقالت لهم رسلهم:{طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ} أي مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ} [الأعراف: ١٣١] ، وقال قوم صالح: {ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ} [النمل: ٤٧]، وقال قتادة ووهب بن منبه: أي أعمالكم معكم، وقوله تعالى:{أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} أي من أجل هذا أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا، {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ}، وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون. إن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، قالوا: وهو حبيب وكان يعمل الحرير، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة ذكره ابن إسحاق عن كعب الأحبار ووهب بن منبه، وقال ابن عباس: اسم صاحب يس حبيب النجار فقتله قومه، وقال السدي: كان قصاراً، وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك،{قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ} يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم{ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا} أي على إبلاغ الرسالة{وَهُم مُّهْتَدُونَ} فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له،{وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى} أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له،{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن

شراً فشر،{ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً } ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع{إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ} أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه، لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء، {فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ١٧] ، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه{ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ } أي إن اتخذتها آلهة من دون الله، وقوله تعالى:{ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ } قال ابن إسحاق: يقول لقومه{ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ} الذي كفرتم به{فَٱسْمَعُونِ } أي فاسمعوا قولي، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله{ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ} أي الذي أرسلكم {فَٱسْمَعُونِ } أي فاشهدوا لي بذلك عنده، وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، وهذا القول أظهر في المعنى والله أعلم، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس: فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه، وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رحمه الله.

إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره، وقال الله له:{ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ} فدخلها، فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها، وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة، وذلك أنه قتل فوجبت له، فلما رأى الثواب{قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ } قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً ولا تلقاه غاشاً، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى{قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ

ٱلْمُكْرَمِينَ} تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله، وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله:{يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ}، وبعد مماته في قوله:{يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ} [1]، قال سفيان الثوري عن أبي مجلز:{بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ} بإيماني بربي وتصديقي المرسلين، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه.

وقال محمد بن إسحاق، عن كعب الأحبار أنه ذكر له حبيب بن زيد الذي كان مسيلمة الكذاب قطعه باليمامة، حين جعل يسأل عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، ثم يقول: أتشهد أني رسول الله، فيقول: لا أسمع، فيقول له مسيلمة لعنه الله: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك! فيقول: نعم، فجعل يقطعه عضواً عضواً كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه، فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب: وكان والله صاحب يس اسمه حبيب.

وقوله تبارك وتعالى:{وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليّه، ويذكر عزَّ وجلَّ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك قاله ابن مسعود والمعنى ما كاثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك،{إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ} فأهلك الله تعالى ذلك الملك، وأهلك أهل انطاكية

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ♥.

فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية، وقيل:{وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم، وقيل: المعنى في قوله تعالى{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} أي من رسالة أُخرى إليهم قاله مجاهد وقتادة وقول ابن مسعود أظهر والله أعلم قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله{إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ} قال ابن جرير: والأول أصح لأن الرسالة لا تسمى جنداً. قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرتهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد.

قال ابن عباس{يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ} أي يا ويل العباد، وقال قتادة:{يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ} أي يا حسرة العباد على أنفسهم، على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله، والمعنى: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله وخالفوا أمر الله؟ فإنهم كانوا{مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ} أي يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق، ثم قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ} أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرّة ولا رجعة، وقوله عزَّ وجلَّ:{وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية، ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جلَّ وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومعنى هذا كقوله جلَّ وعلا:{وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ} [هود: ١١١].

وهكذا ضُربت قرية (يس) مثلاً لكل قرية كذبت المرسلين ولكل

قوم أبوا نصيحة الناصحين؛ فاستحقوا الدمار في الدنيا والعذاب يوم يقوم الناس لرب العالمين، نعوذ بالله العظيم من سوء المآل والمصير إنه نعم المولى ونعم النصير.

{وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾} [الفرقان: ٣٩].

❊ ❊ ❊

المثل الثامن والثلاثون

رجلاً فيه شركاءُ متشاكسون

المثل الثامن والثلاثون:
رجلا فيه شركاء متشاكسون

يقول الله تعالى:

{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾} [الزمر: ٢٩].

قال القرطبي:

قوله تعالى{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} قال الكسائي: نصب{رَّجُلًا} لأنه ترجمة للمثل وتفسير له، وإن شئت نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلا برجل{فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} قال الفراء: أي مختلفون. وقال المبرد: أي متعاسرون من شكس يشكس شكسا بوزن قفل فهو شكس مثل عسر يعسر عسرا فهو عسر، يقال: رجل شكس وشرس وضرس وضبس. ويقال: رجل ضبس وضبيس أي شرس عسر شكس؛ قاله الجوهري. وقال الزمخشري: والتشاكس والتشاخس الاختلاف. يقال: تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه. ويقال: شاكسني فلان أي ماكسني وشاحنني في حقي. قال الجوهري: رجل شكس بالتسكين أي صعب الخلق. قال الراجز:

شكس عبوس عنبس عذور

وقوم شكس مثال رجل صدق وقوم صدق. وقد شكس بالكسر شكاسة. وحكى الفراء: رجل شكس. وهو القياس، وهذا مثل من عبد

آلهة كثيرة.{وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ} أي خالصا لسيد واحد، وهو مثل من يعبد الله وحده.{هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جرّه واستخدمه؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم؟ وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة{وَرَجُلًا سَلَمًا} وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجحدري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب{وَرَجُلًا سَلَمًا} واختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه. قال: لأن السالم الخالص ضد المشترك، والسلم ضد الحرب ولا موضع للحرب هنا. النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السلم ضد الحرب فله موضع آخر؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك. ويلزمه أيضا في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة. واختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة{سَلَمًا} قال وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر{سَلَمًا} بكسر السين وسكون اللام. وسِلما وسَلما مصدران؛ والتقدير: ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و{مَثَلًا} صفة على التمييز، والمعنى هل تستوي صفاتهما وحالاهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. {الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أي لا يعلمون الحق فيتبعونه.

وقال السيوطي في الدُر المنثور: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن

ابن عباس ﷺ {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} قال: الرجل يعبد آلهة شتى. فهذا مثل ضربه الله تعالى لأهل الأوثان {وَرَجُلًا سَلَمًا} يعبد إلها واحدا ضرب لنفسه مثلا.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﷺ في قوله {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} قال: هو المشرك تنازعه الشياطين لا يعرفه بعضهم لبعض {وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ} قال: هذا المؤمن أخلص لله الدعوة والعبادة.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﷺ في قوله {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ} قال: آلهة الباطل وإله الحق، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﷺ {شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ} يعني الصنم، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ في قوله{وَرَجُلًا سَلَمًا} قال: ليس لأحد فيه شيء، وأخرج ابن أبي حاتم عن مبشر بن عبيد القرشي ﷺ قال: قراءة عبد الله بن عمر ﷺ{وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ} قال: خالصا. فإنما يعني مستسلما لرجل.

{ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} [المائدة: ٧٥].

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} [الإسراء: ٤١].

***

المثل التاسع والثلاثون

أنهار الجنة

المثل التاسع والثلاثون:
أنهار الجنة

يقول الله تباركت أسماؤه:

{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ۖ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ۚ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۖ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾} [محمد: ١٥].

قال القرطبي:

وصف تلك الجنات، أي صفة الجنة المُعدّة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في (الرعد). وقرأ علي بن أبي طالب{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ}.{فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ} أي غير متغير الرائحة. والآسن من الماء مثل الآجن. وقد أسن الماء يأسن ويأسن أسنا وأسونا إذا تغيرت رائحته. وكذلك أجن الماء يأجن ويأجن أجنا وأجونا. ويقال بالكسر فيهما: أجن وأسن يأسن ويأجن أسنا وأجنا، قاله اليزيدي. وأسن الرجل أيضا يأسن الكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشي عليه أو دار رأسه.

قال زهير:

قد أترك القِرن مصفرا أنامله ::: يميد في الرمح ميد المائح الأسنِ

ويروى: (الوسن). وتأسن الماء تغير. وقال أبو زيد: تأسن عليّ تأسنا اعتلّ وأبطأ. وقال أبو عمرو: تأسن الرجل أباه أخذ أخلاقه. وقال اللحياني: إذا نزع إليه في الشبه، وقراءة العامة{ءَاسِنٍ} بالمد.

وقرأ ابن كثير وحميد{ءَاسِنٍ} بالقصر، وهما لغتان، مثل حاذر وحذِر. وقال الأخفش: أسن للحال، وآسن مثل فاعل يراد به الاستقبال.

قوله تعالى{وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ} أي لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة.{وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ} أي لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها الأيدي كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا ينكرهها الشاربون. يقال: شراب لذ ولذيذ بمعنى. واستلذه عدّه لذيذا.{وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} العسل ما يسيل من لعاب النحل. {مُّصَفًّى} أي من الشمع والقذى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنسه النحل. وفي الترمذي عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال:«إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد» (قال: حديث حسن صحيح).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة». وقال كعب: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم. وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر. والعسل: يذكر ويؤنث. وقال ابن عباس{مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} أي لم يخرج من بطون النحل.{وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ}، زائدة للتأكيد.{وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} أي لذنوبهم.{كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ} قال الفراء: المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار. وقال الزجاج: أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار. فقوله{كَمَنْ} بدل من قوله:{أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ} [فاطر: ٨]. وقال ابن كيسان: مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم؟ ومثل أهل الجنة في

النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم؟{وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا} أي حارا شديد الغليان، إذا أدنى منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع معي، والتثنية معيان، وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

وقال الشوكاني في فتح القدير: ثم لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بيّن الفرق في مرجعهما ومآ لهما فقال:

{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ} والجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة وبيان ما فيها، ومعنى مثل الجنة وصفها العجيب الشأن وهو مبتدأ وخبره محذوف قال النضر بن شميل تقديره ما يسمعون وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة قال والمثل هو الوصف ومعناه وصف الجنة وجملة{فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ} الخ مفسرة للمثل وقيل إن مثل زائدة وقيل إن مثل الجنة مبتدأ والخبر فيها أنهار وقيل خبره كمن هو خالد، وقرأ الجمهور آسن بالمد وقرأ حميد وابن كثير بالقصر وهما لغتان كحاذر وحذر، وقال الأخفش إن الممدود يراد به الاستقبال والمقصور يراد به الحال:{وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ} أي لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر:{وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ} أي لذيذة لهم طيبة الشرب لا ينكرها الشاربون يقال شراب لذ ولذيذ وفيه لذه بمعنى ومثل هذه الآية قوله:{بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ} [الصافات: ٤٦]، قرأ الجمهور لذة بالجر صفة لخمر وقرئ بالنصب على إنه مصدر أو مفعول له وقرئ بالرفع صفة لأنهار:{وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} أي مصفى مما يخالطه من الشمع

والقذى والعكر والكدر: {وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} أي لأهل الجنة في الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل الثمرات أي من كل صنف من أصنافها و{من} زائدة للتوكيد: {وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} لذنوبهم وتنكير مغفرة للتعظيم أي ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم.

{كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ} هو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير أم من هو في نعيم الجنة على هذه الصفة خالدا فيها كمن هو خالد في النار؟ أو خبر لقوله مثل الجنة كما تقدم ورجح الأول الفراء فقال أراد أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟ وقال الزجاج أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار؟ فقوله كمن بدل من قوله أفمن زين له سوء عمله.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﷺ في قوله {مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ} قال: غير منتن.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة ﷺ{وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ} قال: قال ابن عباس ﷺ : لم يحلب.

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ﷺ في قوله {وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ} قال: لم يخرج من بين فرث ودم {وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ} قال: لم تدنسه الرجال بأرجلهم {وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} قال: لم يخرج من بطون النحل.

وأخرج الحرث بن أبي أسامة في مسنده والبيهقي عن كعب ﷺ قال: نهر النيل نهر العسل في الجنة، ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة. ونهر سيحان نهر الماء في الجنة.

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن

أبي وائل ﷺ قال: جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى ابن مسعود ﷺ فقال: يا أبا عبد الرحمن كيف تقرأ هذا الحرف؟ أياء تجده أم ألفا؟ من ماء غير ياسن أو من ماء غير آسن؟ فقال له عبد الله ﷺ : وكل القرآن أحصيت غير هذا؟ فقال إني لأقرأ المفصل في ركعة. قال: هذا كهذا الشعر إن قوما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن القرآن إذا وقع في القلب فرسخ نفع، إني لأعرف النظائر التي كان يقرأ بهن رسول الله ﷺ وأخرج ابن جرير عن سعد بن طريف ﷺ قال: سألت أبا إسحق ﷺ عن{مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ} قال: سألت عنها الحارث فحدثني أن الماء الذي غير آسن تسنيم، قال: بلغني أنه لا تمسه يد وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخل فمه والله تعالى أعلم.

اللهم لا تحرمنا غفرانك ورضوانك وأنهار الجنة ونعيمها، وقنا سخطك والنار.

❊❊❊

المثل الأربعون

مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل

المثل الأربعون:
مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل

يقول الله جل وعلا:

{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾} [الفتح: ٢٩].

قال ابن كثير:

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال:{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ} وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه ﷺ فقال:{وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ }، كما قال عزَّ وجلَّ: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة: ٥٤]، وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً على الكفار، رحيماً بالأخيار، عبوساً في وجه الكافر، بشوشاً في وجه المؤمن، كما قال تعالى:{وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ :«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (١).

في الصحيح:«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبّك بين

(١) أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير.

أصابعه.

وقوله سبحانه وتعالى:{تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} وصفهم بكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عزَّ وجلَّ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عزَّ وجلَّ، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال جلا وعلا:{وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة: ٧٢]، وقوله جل جلاله:{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال ابن عباس: يعني السمت الحسن، وقال مجاهد: يعني الخشوع والتواضع، وقال السدي: الصلاة تحسّن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار [١].

وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس، وقال عثمان ﷺ : (ما أسّر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه) والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله عزَّ وجلَّ ظاهره للناس، كما روي عن عمر ﷺ أنه قال: (من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته) وقال النبي ﷺ :«ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر» [٢].

في الحديث:«إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء

(١) أسنده ابن ماجة في سننه والصحيح أنه موقوف.
(٢) أخرجه الطبراني عن جندب بن سفيان البجلي.

من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» [1].

الصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالك ﷺ : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم، في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا:{ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ}، ثم قال: {وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ} أي فراخه{فَـَٔازَرَهُۥ} أي شده {فَٱسْتَغْلَظَ} أي شبّ وطال{فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ} أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع{لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ}، ومن هذه الآية أخذ الإمام مالك رحمه الله بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ﷺ، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء ﷺ على ذلك.

والأحاديث في فضل الصحابة ﷺ، والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، ثم قال تبارك وتعالى:{وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم} (من) هذه لبيان الجنس{مَّغْفِرَةً} أي لذنوبهم{وَأَجْرًا عَظِيمًا} أي ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال، الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، ﷺ وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس

(١) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

مأواهم. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ :«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه» (١).

قال السيوطي في الدُّر المنثور:

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم} قال: أما إنه ليس بالذين ترون، ولكنه سيما الإسلام وسحنته وسمته.

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أُبَيّ بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في قوله {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال:«النور يوم القيامة».

وأخرج البخاري في تاريخه وابن نصر عن ابن عباس ﷺ في قوله{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: بياض يغشى وجوههم يوم القيامة.

وأخرج أبو عبيد وأبو نعيم في الحلية وابن المنذر عن عمار مولى بني هاشم قال: سألت أبا هريرة ﷺ عن القدَر قال: اكتفِ منه بآخر سورة الفتح {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} إلى آخر السورة، يعني أن الله نعتهم قبل أن يخلقهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﷺ في قوله {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } قال: جعل الله في قلوبهم الرحمة بعضهم لبعض{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: علامتهم الصلاة{ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} قال: هذا المثل في التوراة{وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ} قال: هذا مثل آخر {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ} قال: هذا نعت أصحاب محمد في الإنجيل. قيل له: أنه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ في قوله {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة {ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} قال: سنبله حين يبلغ نباته عن حباته{فَآزَرَهُ} يقول: نباته مع التفافه حين يسنبل، فهذا مثل ضربه الله لأهل الكتاب إذا خرج قوم ينبتون كما ينبت الزرع فيهم رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ثم يغلظ فيهم الذين كانوا معهم، وهو مثل ضربه لمحمد ﷺ يقول: يبعث الله النبي وحده ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به ثم يكون القليل كثيرا وسيغلظون، ويغيظ الله بهم الكفار يعجب الزراع من كثرته وحسن نباته، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك ﷺ {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} قال: يقول حب بُر متفرقا فأنبتت كل حبة واحدة ثم أنبتت من حولها مثلها حتى استغلظ واستوى على سوقه يقول: كان أصحاب محمد ﷺ قليلا ثم كثروا واستغلظوا.

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس ﷺ في قوله{كَزَرْعٍ} قال: أصل الزرع عبد المطلب أخرج شطأه محمد ﷺ فآزره بأبي بكر فاستغلظ بعمر فاستوى بعثمان على سوقه بعلي ليغيظ بهم الكفار.

هذا مثل رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام الطيبين ﷺ أجمعين في التوراة والإنجيل وطاب مثلهم والله، فاللهم ارزقنا الاقتداء بهم والسير على دربهم واحشرنا في زمرتهم وألحقنا بهم في الفردوس الأعلى.

❋❋❋

المثل الحادي والأربعون

يأكل لحم أخيه ميتاً

المثل الحادي والأربعون:
يأكل لحم أخيه ميتا

يقول الله عز وجل:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾} [الحجرات: ١٢].

قال القرطبي:

قوله تعالى{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا} نهى عز وجل عن الغيبة، وهي أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان. ثبت معناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:«أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال:«ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال:«إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». يقال: اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه، والاسم الغِيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب. قال الحسن: الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان. فأما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه. وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه. وعن شعبة قال: قال لي معاوية - يعني ابن قرة - : لو مر بك رجل أقطع، فقلت هذا أقطع كان غيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق. وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزا جاء إلى النبي ﷺ فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله ﷺ فسمع نبي الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما

للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رجمَ الكلب، فسكت عنهما. ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال:«أين فلان وفلان؟» فقالا: نحن ذا يا رسول الله، قال:«انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا ! قال:«فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها».

قوله تعالى{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا} مثل الله الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه. وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيّاً. واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية. قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ::: وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وقال ﷺ :«ما صام من ظل يأكل لحوم الناس». فشبه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقص مسلما أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حيا، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتا. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ :«لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» [1].

وعن المستورد أن رسول الله ﷺ قال:«من أكل برجل مسلم أكلة

(١) رواه ابو داود.

فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كسي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». وقد تقدم قوله ﷺ :«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين»، وقوله للرجلين:«ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما». وقال أبو قلابة الرقاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحدا منذ عرفت ما في الغيبة. وكان ميمون بن سياه لا يغتاب أحدا، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده، ينهاه فإن انتهى وإلا قام. وذكر الثعلبي من حديث أبي هريرة قال: قام رجل من عند النبي ﷺ فرأوا في قيامه عجزا فقالوا: يا رسول الله ما أعجز فلانا فقال:«أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه». وعن سفيان الثوري قال: أدنى الغيبة أن تقول: إن فلانا جعد قنطط إلا أنه يكره ذلك. وقال عمر بن الخطاب ﷺ : إياكم وذكر الناس فإنه داء، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء. وسمع علي بن الحسين ﷺ رجلا يغتاب آخر، فقال: إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك، قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني فقال: لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

قوله تعالى:{مَيْتًا} وقرئ{مَيِّتًا} وهو نصب على الحال من اللحم. ويجوز أن ينصب على الأخ، ولما قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى:{فَكَرِهْتُمُوهُ} وفيه وجهان: أحدهما: فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغيبة، روي معناه عن مجاهد. الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس. وقال الفراء: أي فقد كرهتموه فلا تفعلوه. وقيل: لفظه خبر ومعناه أمر، أي اكرهوه.{وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ} عطف عليه. وقيل: عطف على قوله{ٱجْتَنِبُوا۟ .. وَلَا

تَجَسَّسُوا}.{إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}، وقال الزمخشري: {أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ} تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدهم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لايحب ذلك، ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا، إن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا. وعن قتاده: كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي. وانتصب (ميتا) على الحال من اللحم، ويجوز أن ينتصب عن الأخ. وقرئ ميِّتا. ولما قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى:{فَكَرِهْتُمُوهُ} معناه: فقد كرهتموه، واستقر ذلك وفيه معنى الشرط: أى إن صح هذا فكرهتموه وهى على الفاء الفصيحة: أى فتحققت بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه كراهتكم له وتقذركم منه، فليتحقق أيضا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين. وقرئ فكُرّهتموه: أى جبلتم على كراهته. فإن قلت: هلا عدى بإلى كما عدى في قوله - وكره إليكم الكفر - وأيهما القياس ؟ قلت: القياس تعديه بنفسه لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه، تقول كرهت الشيء فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول أما تعديه بإلى فتأول وإجراء لكره مجرى بغض، لأن بغض منقول من بغض الشيء فهو بغيض إليه.

{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

***

المثل الثاني والأربعون

كمثل الحمار يحمل أسفارا

المثل الثاني والأربعون:
كمثل الحمار يحمل أسفارا

يقول الله جل شأنه:

{مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥} [الجمعة: ٥].

قال القرطبي: ضُرب مثلا لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ{حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ} أي كلفوا العمل بها، عن ابن عباس. وقال الجرجاني: هو من الحمالة بمعنى الكفالة؛ أي ضمنوا أحكام التوراة.{كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا} هي جمع سِفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زنبيل؛ فهكذا اليهود. وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء. وقال الشاعر:

زوامل [1] للأسفار لا علم عندهم ::: بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ::: بأوساقه أوراح ما في الغرائر

وقال يحيى بن يمان: يكتب أحدهم الحديث ولا يتفهم ولا يتدبر، فإذا سئل أحدهم عن مسألة جلس كأنه مكاتب. وقال الشاعر:

إن الرواة على جهل بما حملوا ::: مثل الجمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجمال له ::: ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

وقال منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله فأحسن:

(١) زوامل: الإبل التي تحمل الأحمال الثقيلة، وأحدها: زاملة (القاموس المحيط).

ا نعق بما شئت تجد أنصارا ::: وزم أسفارا تجد حمارا
يحمل ما وضعت من أسفار ::: يحمله كمثل الحماريحمل أسفارا
وما درى إن كان ::: ما فيها صوابا أم خطا
إن سئلوا قالوا كذا روينا ::: ما إن كذبنا ولا اعتدينا

{ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} أي لم يعملوا بها، شبههم - والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها - بالحمار يحمل كتبا وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة.

و{يَحْمِلُ} في موضع نصب على الحال؛ أي حاملا. ويجوز أن يكون في موضع جر على الوصف؛ لأن الحمار كاللئيم. قال:

ولقد أمر على اللئيم يسبني

{بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ} المثل الذي ضربناه لهم؛ فحذف المضاف. {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي من سبق في علمه أنه يكون كافرا.

وقال ابن كثير:

يقول تعالى ذاماً لليهود، الذين أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كما قال تعالى: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى ههنا: {بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

ٱلظَّٰلِمِينَ}. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ :«من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة» (١).

قال الزمخشري في الكشاف:

شبّه اليهود - في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها وذلك أنّ فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به ولم يؤمنوا به - بالحمار حمل أسفاراً أي كتباً كباراً من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمرّ بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبئس المثل{بِئْسَ} مثلاً{مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ} وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ ومعنى:{حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ} : كُلفوا علمها والعمل بها{ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها، وقرئ:{حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ} أي حملوها ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل، وقرئ:{يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا} فإن قلت:{يَحْمِلُ} ما محله قلت: النصب على الحال أو الجر على الوصف.

{بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾}

[الجمعة: ٥].

{سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾}

[الأعراف: ١٧٧].

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد.

المثل الثالث والأربعون

امرأة نوح وامرأة لوط

المثل الثالث والأربعون:
امرأة نوح وامرأة لوط

يقول الله جل وعلا:

{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾} [التحريم: ١٠].

قال ابن كثير:

قال تعالى:{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟} أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، إذ لم يكن الإيمان خالصاً في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال:{ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ} أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط،{فَخَانَتَاهُمَا} أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدَّقاهما في الرسالة، فلم يجد ذلك كله شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً، ولهذا قال تعالى:{فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا} أي لكفرهما،{وَقِيلَ} أي للمرأتين{ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ}، وليس المراد بقوله{فَخَانَتَاهُمَا} في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، قال ابن عباس {فَخَانَتَاهُمَا} قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه، وقال الضحّاك: عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما

في الدين وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم وهو الصحيح كما قال ابن عباس: خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما.

وقال القرطبي: ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على أنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرق بينهما الدين. وكان اسم امرأة نوح والهة، واسم امرأة لوط والعة؛ قاله مقاتل. وقال الضحاك عن عائشة رضي الله عنها: إن جبريل نزل على النبي ﷺ فأخبره أن اسم امرأة نوح واغلة واسم امرأة لوط والهة.{فَخَانَتَاهُمَا} قال عكرمة والضحاك. بالكفر. وقال سليمان بن رقية والضحاك: بالكفر. وقال سليمان بن رقية عن ابن عباس: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون. وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه. وعنه: ما بغت امرأه نبي قط. وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري. إنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين. وقيل: كانتا منافقتين. وقيل: خيانتهما النميمة إذا أوحى الله إليهما شيئا أفشتاه إلى المشركين؛ قاله الضحاك. وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف؛ لما كانوا عليه من إتيان الرجال.{فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا} أي لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما - لما عصتا - شيئا من عذاب الله؛ تنبيها بذلك على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة. ويقال: إن كفار مكة استهزؤوا وقالوا: إن محمدا ﷺ يشفع لنا؛ فبين الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفار مكة وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته، مع قربهما لهما لكفرهما. وقيل لهما{وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} في الآخرة؛ كما يقال لكفار مكة وغيرهم. ثم قيل: يجوز أن تكون{ٱمْرَأَتَ نُوحٍ} بدلا من قوله: {مَثَلًا} على تقدير

حذف المضاف؛ أي ضرب الله مثلا مثل امرأة نوح. ويجوز أن يكونا مفعولين.

وقال الزمخشري في الكشاف:

{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} مثل الله عز وجل حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو صلة صهر لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء الله - بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من صلة الزواج إغناء ما من عذاب الله{وَقِيلَ} لهما عند موتهما أو يوم القيامة:{ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ} سائر{ٱلدَّٰخِلِينَ} الذين لاصلة بينهم وبين الأنبياء. أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط ومثل حال المؤمنين - في أن صلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً، وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر، ونحوه في التغليظ قوله تعالى{وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ} [آل عمران: ٩٧]، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في

الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين وان لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين والتعريض بحفصة أرجح لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله. وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حداً يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره، فإن قلت ما فائدة قوله:{مِنۡ عِبَادِنَا}.

قلت: لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائناً من كان وانه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله: قال عبدين من عبادنا صالحين فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهاراً وإبانه لأن عبداً من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير وأن ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب للرجحان عنده.

فإن قلت: ما كانت خيانتهما؟ قلت: نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون وامرأة لوط دلت على ضيفانه، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقاً وعن ابن عباس ﷺ : ما بغت امرأة نبي قط.

{ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

* * *

المثل الرابع والأربعون

امرأة فرعون

المثل الرابع والأربعون:
امرأة فرعون

يقول الله عزّ وجلّ:

{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} [التحريم: ١١].

قال الزمخشري في الكشاف:

وامرأة فرعون: آسية بنت مزاحم، وقيل: هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك فعذبها فرعون عن أبي هريرة: أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع رحى على صدرها، وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله فرقي بروحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه.

وعن الحسن: فنجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة: أريت بيتها في الجنة يُبنى، وقيل: إنه من دُرّة، وقيل: كانت تعذب في الشمس فتظلها الملائكة، فإن قلت: ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة قلت طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب بقولها:{فِى ٱلْجَنَّةِ} أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها:{عِندَكَ}،{مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ} من عمل فرعون، أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه

الغشوم وخصوصاً من عمله وهو: الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم{وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} من القبط كلهم، وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل: من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين:{فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾} [الشعراء: ١١٨]،{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾} [يونس: ٨٥ - ٨٦].

وقال ابن كثير:

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين، أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى:{إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً} [آل عمران: ٢٨]، قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه، وروى ابن جرير، عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة، فقولها:{رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ} قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار،{وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ} أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله{وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم ﷺ، عذبها فرعون فشدَّ يديها ورجليها بالأوتاد وهي صابرة، فرأت بيتها في الجنة فضحكت حين رأته، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها! إنا نعذّبها وهي تضحك، فقبض الله روحها في الجنة ﷺ.

وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال:«كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت

عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

قال القرطبي:

وقوله تعالى{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ} واسمها آسية بنت مزاحم. قال يحيى بن سلام: قوله{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟} [التحريم: ١٠]، مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ثم ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران؛ ترغيبا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين. وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة؛ أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون. وكانت آسية آمنت بموسى. وقيل: هي عمة موسى آمنت به. قال أبو العالية: اطلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها. فقال لهم: إنها تعبد ربا غيري. فقالوا له: اقتلها. فأوتد لها أوتادا وشد يديها ورجليها فقالت{رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ} ووافق ذلك حضور فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة. فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها! إنا نعذبها وهي تضحك؛ فقبض روحها. وقال سلمان الفارسي فيما روى عنه عثمان النهدي: كانت تعذب بالشمس، فإذا أذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها. وقيل: سمر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رحى؛ فأطلعها الله. حتى رأت مكانها في الجنة. وقيل: لما قالت{رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ} أريت بيتها في الجنة يبنى. وقيل: إنه من درة؛ عن الحسن. ولما قالت{وَنَجِّنِى} نجاها الله

(١) أخرجه الشيخان.

أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعم.{مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} تعني بالعمل الكفر. وقيل: من عمله من عذابه وظلمه وشماتته،{وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، قال الحسن وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة؛ فهي فيها تأكل وتشرب.

{تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾} [إبراهيم: ٢٥].

هذا، ومن لطائف وعجائب الرسم العثماني في كلمة: (امرأت) أنها إذا جاء بعدها اسم زوجها رسمت بالتاء المفتوحة، كما في:

(امرأت نوح) و(امرأت لوط) و(امرأت فرعون) و(امرأت عمران) و(امرأت العزيز) وهكذا، وكأنها مع زوجها لا حرج عليها أن تنفتح؛ لأنه حليلها وحاميها وراعيها، أما مع غير زوجها فإنها تنغلق وتأتي منغلقة مربوطة هكذا: (امرأة) كما في قوله تعالى:{وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا} [النساء: ١٢٨] الآية، وكما في قوله تعالى:{وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ} [النساء: ١٢] الآية ونحوها، وكأنها إشارة إلى أدب المرأة المسلمة، فمع زوجها ومحارمها لا جُناح عليها أن تنفتح، أما مع غير الزوج والمحارم فإنها منغلقة متحفظة متسترة. فسبحان الله رب العالمين! حتى نعلم أن هذا الرسم العثماني كما اشتهر بنسبته إلى سيدنا عثمان ﷺ وأرضاه رسم توقيفي حاقل بالأسرار والعجائب واللطائف التي ليس ههنا مجال تفصيلها؛ ولهذا لا يصح أن نحيد عنه عند كتابة القرآن إلى الرسم الإملائي.

ليظل محتفظاً بإعجازه وعجائبه وأسراره في رسمه وخطّه.

* * *

المثل الخامس والأربعون

لو أنزلنا هذا القرآن على جبل

المثل الخامس والأربعون:
لو أنزلنا هذا القرآن على جبل

يقول الله تبارك وتعالى:

{لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾} [الحشر: ٢١].

قال القرطبي:

قوله تعالى:{لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا} حث على تأمل مواعظ القرآن وبين أنه لا عذر في ترك التدبر؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي متشققة من خشية الله، والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق. وقيل{خَاشِعًا} لله بما كلفه من طاعته،{مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} أن يعصيه فيعاقبه. وقيل: هو على وجه المثل للكفار.{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} أي أنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده وقيل: الخطاب للنبي ﷺ أي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت، وتصدع من نزوله عليه؛ وقد أنزلناه عليك وثبتناك له؛ فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لا تثبت له الجبال. وقيل: إنه خطاب للأمة، وأن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله. والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتا؛ فهو يقوم بحقه إن أطاع، ويقدر على رده إن عصى؛ لأنه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب.

وقال ابن كثير:

يقول تعالى معظما لأمر القرآن ومبينا علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل فكيف يليق بكم يا أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ولهذا قال تعالى:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى:{لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا} إلى آخرها يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، ثم قال تعالى:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} وكذا قال قتادة وابن جرير وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عُمل له المنبر وكان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حنّ الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم وقد قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ

كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ} [الرعد: ٣١] الآية، وقد قال تعالى:{وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} [البقرة: ٧٤].

وقال الشوكاني في فتح القدير:

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم وأخبر عن جلالته وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة فقال:{لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} أي من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعا متصدعا أي متشققا من خشية الله سبحانه حذرا من عقابه وخوفا من أن لا يؤدى ما يجب عليه من تعظيم كلام الله وهذا تمثيل وتخييل يقتضي علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب ويدل على هذا قوله:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ وينزجروا بالزواجر وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ولا اتعظوا بمواعظه ولا انزجروا بزواجره، والخاشع: الذليل المتواضع، وقيل الخطاب للنبي ﷺ أي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت ولتصدع من نزوله عليه وقد أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي ﷺ لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسي.

وقال الزمخشري: هذا تمثيل وتخييل كما مرّ في قوله تعالى:{ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ } [الأحزاب: ٧٢]، وقد دل عليه قوله:{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ} والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره، وقرئ: " مصدّعاً " على الإدغام " وتلك الأمثال " إشارة إلى هذا.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

اللهم ارزقنا خشوع القلب لذكرك وما أنزلت

من الحق وارزقنا خشيتك

ومخافة مقامك العظيم يا عليُّ يا عظيم يا ذا الجلال

والإكرام يا حي يا قيوم

* * *

المثل السادس والأربعون

ذكرى للبشر

المثل السادس والأربعون:
ذكرى للبشر

يقول الله جلّ وعلا:

{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾} [المدثر: ٣١].

قال ابن كثير: يقول تعالى:{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ} أي خُزّانها{إِلَّا مَلَائِكَةً} أي زبانية غلاظاً شداداً، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم، فقال الله تعالى:{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون، وقد قيل: إن أبا الأشدين قال: يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح عنه، قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته، وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن، نسب ابن اسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد، قال ابن كثير ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم وقوله تعالى:{وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس،{لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} أي

يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله تعالى:{وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا} أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم ﷺ،{وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} أي من المنافقين،{وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا}؟ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى:{كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ} وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وقوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم أنهم تسعة عشر فقط، وقد ثبت في حديث الإسراء في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة:«فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم» (١).

وروى الإمام أحمد، عن أبي ذر قال، قال رسول الله ﷺ :«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد (٢).

وعن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ :«ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف، إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنّا لم نشرك بك شيئاً» (٣).

(١) أخرجه في الصحيحين.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن غريب.
(٣) أخرجه الحافظ الطبراني.

وعن ابن مسعود أنه قال: إن من السماوات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم، ثم قرأ:{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾} [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦] (١).

وروى محمد بن نصر، عن عباد بن منصور قال: سمعت عدي بن أرطأة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:«إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق السماوات والأرض لم يرفعوا رءُوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رءُوسهم نظروا إلى وجه الله عزَّ وجلَّ قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» (٢).

وقوله تعالى:{وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ} أي النار التي وصفت{إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ}.

وقال القرطبي:

قوله تعالى{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾} [المدثر: ٣٠]، أي على سقر تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها. ثم قيل: على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، مالك وثمانية عشر ملكا. ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيبا، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملكا بأعيانهم. وعلى هذا أكثر المفسرين. الثعلبي: ولا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق. وقال ابن جريج: نعت النبي ﷺ خزنة جهنم

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة.
(٢) أخرجه محمد بن نصر، قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

فقال:«فكأن أعينهم البرق، وكأن أفواههم الصياصي - أي الحصون والقلاع -، يجرون أشعارهم، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل، فيرميهم في النار، ويرمي فوقهم الجبل». قلت: وذكر ابن المبارك قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم قال: كنا عند أبي العوام، فقرأ هذه الآية{وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠} [المدثر: ٢٧ - ٣٠]، فقال ما تسعة عشر؟ تسعة عشر ألف ملك، أو تسعة عشر ملكا؟ قال: قلت: لا بل تسعة عشر ملكا. فقال: وأنى تعلم ذلك؟ فقلت: لقول الله عز وجل:{وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} قال: صدقت هم تسعة عشر ملكا، بيد كل ملك منهم مرزبة لها شعبتان، فيضرب الضربة فيهوي بها في النار سبعين ألفا. وعن عمرو بن دينار: كل واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر.

خرّج الترمذي عن جابر بن عبد الله. قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا. فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد غلب أصحابك اليوم؛ فقال: (وماذا غلبوا)؟ قال: سألهم يهود: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قال: (فماذا قالوا) قال: قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا. قال:«أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون، فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا؟ لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة، علي بأعداء الله! إني سائلهم عن تربة الجنة وهي الدرمك». فلما جاؤوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟ قال:«هكذا وهكذا» في مرة عشرة وفي مرة تسعة. قالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ :«ما تربة الجنة» قال: فسكتوا هنيهة ثم قالوا: أخبزة يا أبا القاسم؟ فقال رسول الله ﷺ :«الخبز من الدرمك».

(قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشعبي عن جابر).

وذكر ابن وهب قال: حدثنا عبدالرحمن بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم: «ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب». وقال ابن عباس: ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم، قلت: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها؛ كما قال الله تعالى {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ :«يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدهم - أي العدد - والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأسود بن كلدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة؛ يقولها مستهزئا. في رواية: أن الحارث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال: أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى{وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً} أي لم نجعلهم رجالا فتتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة، ولا يستروحون إليهم؛

ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له، فتؤمن هوادتهم؛ ولأنهم أشد خلق الله بأسا وأقواهم بطشا.{وَمَاجَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً} أي بلية. وروي عن ابن عباس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلا عذابا، كما قال تعالى{يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ} [الذاريات: ١٣ - ١٤]: أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب، ثم قال: وقوله تعالى إخبارا عنهم{مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ} أي ما أراد{بِهَٰذَا} العدد الذي ذكره حديثا، أي ما هذا من الحديث. قال الليث: المثل الحديث؛ ومنه{مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ} [الرعد: ٣٥]، أي حديثها والخبر عنها{كَذَٰلِكَ} أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم{يُضِلُّ ٱللَّهُ} أي يخزي ويعمي{مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى} أي ويرشد{مَن يَشَآءُ} كإرشاد أصحاب محمد ﷺ. وقيل{كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ} عن الجنة{مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى} إليها من يشاء{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} أي وما يدري عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار{إِلَّا هُوَ} أي إلا الله جل ثناؤه وهذا جواب لأبي جهل حين قال: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر! وقال الأوزاعي:«قال موسى يا رب من في السماء؟ قال ملائكتي. قال كم عددهم يا رب؟ قال: اثنى عشر سبطا. قال: كم عدة كل سبط؟ قال: عدد التراب» ذكره الثعلبي. وفي سنن الترمذي عن النبي ﷺ :«أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجدا».

قوله تعالى{وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ} يعني الدلائل والحجج والقرآن. وقيل{وَمَا هِىَ} أي وما هذه النار التي هي سقر{إِلَّا ذِكْرَىٰ} أي عظة{لِلْبَشَرِ} أي للخلق. وقيل: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. قال الزجاج. وقيل: أي ما هذه العدة{إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ} أي ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله

تعالى، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار؛ فالكناية على هذا في قوله تعالى{وَمَاهِيَ} ترجع إلى الجنود؛ لأنه أقرب مذكور، والله أعلم بمراده.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت: ٤٣].

اللهم قنا مس سقر وزحزحنا عنها ونجنا من عذابها وأدخلنا الجنة بسلام ومتعنا بلذة النظر إلى وجهك الكريم وأسعدنا بشفاعة نبيك يا رءوف يا رحيم.

* * *

خاتمة

أمثال القرآن

خاتمة

وبعد، فهذه أمثال القرآن مجتمعة ومرتبة حسب ورودها في المصحف الشريف، قد تناولتها بالشرح والتفسير حتى تتضح معانيها وتتكشف مراميها، ويظهر مغزاها ويُعرف فحواها، واعتمدت في ذلك أقوال المفسرين المشهورين؛ حيث تكاملت أقوالهم وتآزرت تفسيراتهم في بيان أمثال القرآن؛ فعمدت إلى تنويع النقول عنهم لتكتمل الفائدة ويتحقق المنشود من الفهم الكامل والإحاطة بمعاني الأمثال في القرآن الكريم، عسى أن يكون ذلك مُعينا لنا على فهم تلك الأمثال ومَعينا ننهل منه كلما ظمئنا إلى معرفة ما استعجمناه أو جهلناه من أمثال القرآن في كتاب واحد يسير محمله قريب متناوله بدلاً من تجشم الغوص في بطون أمهات التفاسير التي عُنيت بتفسير كتاب الله كله سائلاً الله جل وعلا أن يرزقنا حسن التدبر والتفكر في آياته المسطورة والمنظورة في كتابه الكريم وكونه العظيم.

{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)}

[آل عمران: ٧ - ٨].

والملاحَظ أن أكثر القضايا التي ضرب الله لها الأمثال هي: قضية التوحيد وتنزيه ذاته المقدسة عن الند والشريك والنظير ولا عجب في ذلك فهي القضية المحورية التي من أجلها أُرسل الرسل وأُنزل الكتب وخُلق الجن والإنس، ثم قضية إحباط عمل الكافرين وجعلها هباءً منثورا بسبب كفرهم وشركهم وتكذيبهم بالقضية الأولى، ثم قضية الدنيا وحقارتها وتفاهتها وسرعة ذبولها وزوالها؛

فلطالما كانت السبب الرئيس في تكذيبهم بالقضية الأولى وإحباط أعمالهم المبنية على الشرك وابتغاء الدنيا وما فيها من ذكر وثناء وسمعة ورياء.

وبعد، فما كان في هذا الكتاب من حق وصواب فمن الله وبتوفيقه، وما وقع فيه من زلل أو خطأ أو نسيان، فمن نفسي والشيطان أبرأ إلى الله تعالى منه وأعتذر عنه،

والله ولي التوفيق.

وختاماً أسأل الله العلي القدير أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعني به وإياكم في الدنيا والآخرة وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المراجـع

أمثـــال القــرآن

المراجع

القرآن الكريم.
تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
تفسيرفتح القدير للشوكاني.
أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي.
تفسير البغوي.
الدّر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.
تفسير الكشاف للزمخشري.
لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي.
أسباب النزول للواحدي النيسابوري.
صحيح البخاري.
صحيح مسلم.
سنن أبي داود.
سنن الترمذي.
سنن النسائي.
سنن ابن ماجة.
مسند الإمام أحمد.
لسان العرب لابن منظور المصري.
القاموس المحيط للفيروزابادي.

***